تحليل الخطاب في ضوء المناهج الفلسفية والنقدية المعاصرة

د. داود خليفة
أ شنوف نصر الدين
جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف.

ملخص: اهتمت الفلسفة، كغيرها من فروع العلوم الإنسانية الأخرى، بالخطاب: إنتاجه وتحليله. وقد تزايد هذا الاهتمام خاصة في الفلسفة المعاصرة، حيث ظهرت مجموعة من المدارس والاتجاهات الفلسفية كان الخطاب وآليات تحليله اهتمامها الأساسي... سنحاول في هذا البحث إلقاء الضوء على نماذج من هذه المدارس الفلسفية وآليتها في تحليل الخطاب.

-**الكلمات المفتاحية:** الخطاب، النص، التحليل، اللغة، التفكيك، العلامة...

تتقاطع الفلسفة مع غيرها من فروع المعرفة الأخرى في الاهتمام بالخطاب، ولئن كانت تلك الفروع تتناوله تناولا خاصا كتناول الأدب – مثلا – للخطاب الأدبي، فإن الفلسفة من حيث هي فكر شمولي تتناول الخطاب في عموميته مهما كان نوع الخطاب: أدبي، فني، ديني أو سياسي...إن اهتمام الفلسفة بالخطاب وإن كان قديما قدم الفكر الفلسفي ذاته، فإن هذا الاهتمام تبلور بصورة خاصة في الحقبة المعاصرة، حيث شهدت هذه الفترة ظهور العديد من المدارس والمناهج النقدية التي كان الخطاب وآليات تحليله مبحثها الرئيس. وسنقدم – في هذه الورقة البحثية – تحليلا وصفيا لتحليل الخطاب في ضوء المناهج الفلسفية المعاصرة.

1- الفلسفة وتحليل الخطاب: من المعلوم أن التناول الفلسفي للخطاب ليس جديدا، فقد اهتمت الفلسفة بالخطاب منذ أقدم عصورها، وقد تجسد هذا الاهتمام بشكل خاص عند السفسطائيين الذين تخفوا في ثوب لغوي لما حاولوا هدم الفلسفة حينما أدركوا الإمكانات التي يمكن أن تحملها اللغة كالمغالطة والقدرة على التمويه وإيقاع الخصم في الخطأ والتناقض ودور الخطابة في تغيير الآراء والمواقف... ولهذا السبب كان اهتمام السفسطائيين بالخطاب بالغا. أما **أرسطو** فقد حاول تقنين اللغة ووضع أساليب للتفكير من خلال وضعه للمنطق الصوري، كما أنه جعل من الخطاب موضوعا رئيسيا في فلسفته في كتابه "الخطابة". وتشكّلُ هذه اللحظة لحظة الارتباط بين الخطاب والفلسفة والمنطق من حيث إن الخطاب كما جاء في موسوعة جميل

صليبا: «عملية عقلية منظمة تنظيما منطقيا، أو عملية مركبة من سلسلة من العمليات العقلية الجزئية».[1] أما الفلسفة المعاصرة فقد عُرفت بنزوعها نحو اللغة باعتبارها الموضوع الرئيس للفلسفة، فأصبح منطلق الفلسفة لا "الأشياء" كما كان الحال في الفلسفة الوسيطية وما قبلها، ولا "الأفكار" كما كان الحال في الفلسفات الحديثة بمختلف اتجاهاتها، بل غدت اللغة منطلقا للفلسفة بالاعتماد على المنهج التحليلي سواء كان في صورة تحليل المنطقي أو تحليل اللغوي. ويعتبر **لودفيغ فيتنجشتاين** (1889 – 1951 ***L. Wittgenstein***) رائدا لهذا التحول، الذي أكد أن اللغة تتكشف لنا في استعمالها في مختلف النشاط الإنساني. من هنا شغل تحليل اللغة أو تحليل الخطاب اهتمامات الفلاسفة المعاصرين على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والمذهبية، هذا الميل إلى اللغة والاهتمام بها هو ما أصبح يعرف في أدبيات الفلسفة بـ"التحول اللغوي".

2- المدارس الفلسفية المعاصرة وتحليل الخطاب: ننطلق أولا من التحديد الدلالي لمعنى "الخطاب" (***Discours***)، من الناحية اللغوية يتفق علماء اللغة أن الخطاب المقصود به على وجه التحديد هو الكلام الصادر على أساس التوجيه، أي من المخاطِب إلى المخاطَب. وجاء في لسان العرب في مادة (خ ط ب) أن الخطاب هو مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر في مقام التواصل[2] وورد في كشاف اصطلاحات الفنون بمعنى توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، فالخطاب لفظ متواضع عليه، يقصد به إفهام من هو متهيئ لفهم[3] نفهم من ذلك أن الخطاب من حيث الدلالة اللغوية يعني الكلام الصادر بغرض الإفهام والتواصل. هذا الاتفاق في تحديد معنى الخطاب لغويا، يقابله الاختلاف في تحديد معناه اصطلاحيا، حيث اختلفت تعريفات الخطاب إلى درجة يتعذر معها حصر كل تلك التعريفات الاصطلاحية، وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض منها. فـ**إميل بنفنيست** (1902 – 1976 ***É. Benveniste***) يعرّف الخطاب بقوله: «كل كلام مقول يستدعي متكلما ومستمعا، مع توفر النية عند الأول للتأثير في الثاني بصورة ما»[4]. أما **تزفيتان تودورف** (1939 – 2017 ***T. Todorov***) فالخطاب عنده يعني مجموع الظروف التي يجري فيها فعل

التلفظ مكتوبا كان أم شفهيا... نسمي أحيانا هذه الظروف السياق. ومهما اختلفت التعريفات فهي في النهاية تتفق على أن الخطاب كلام له قصديه في إنتاجه تحت جملة من الظروف والشروط. كما ينبغي تحديد الفرق بين مصطلحي "الخطاب" و"النص" (***Texte***): الاختلاف الأول هو الحضور والغياب؛ فالخطاب يفترض وجود سامع حاضر يتلقى هذا الخطاب، أي أن الخطاب مبني على تواصل حاضر مؤسسا على اللغة المنطوقة، أما النص فينتج لمتلقي غائب يتلقى هذا الخطاب بفعل القراءة. وبشكل عام يمكن القول إن كل خطاب نص، وكل نص – حسب **بول ريكور** (***P. Ricœur*** 2005 – 1913) – هو خطاب مثبت عن طريق الكتابة.

يلزم عن ذلك أن الخطاب مرتبط بلحظة إنتاجه، لا يتجاوز سامعه إلى غيره، بينما للنص خاصية القراءة في كل زمان ومكان ومن ثمّ فهو يتجاوز الإطار الزماني.

لا نختلف في القول إن تحليل الخطاب يهدف إلى فك شفرة النص بالتعرف على ما وراءه من افتراضات أو ميول فكرية أو مفاهيم؛ فتحليل الخطاب عبارة عن محاولة للتعرف على الرسائل التي يود النص أن يرسلها، ويضعها في سياقها التاريخي والاجتماعي، وهو يضمر داخله هدفا أو أكثر، وله مرجعية أو مرجعيات وله مصادر يشتق منها مواقفه وتوجهاته(5)، من هنا كان الخطاب أكبر وأشمل من النص، من حيث إن للخطاب سياقا يتمثل في الظروف والمؤثرات المباشرة على عملية إنتاجه.

2-1- البنيوية اللسانية وتحليل الخطاب: لقد عرفت البنيوية (***Structuralisme***) أرقى مراحل تطورها خلال الستينات القرن الماضي، لاسيما في مجال الأعمال النقدية مع كتابات **رولان بارت** (***R. Barthes***1980 – 1915) و**ميشال فوكو**(***Foucault*** 1984 – 1926)، والأساس الذي تقوم عليه البنيوية هو تعاملها مع اللغة والخطاب. تعود الأصول الأولى للبنيوية إلى أعمال العالم اللغوي **فردينان دو سوسير** (***F. de Saussure*** 1913 – 1857) الذي قام بوضع الأسس التي مهدت لتحول البحث اللساني من المنهج التاريخي المقارن إلى المنهج البنيوي لما طرح مسألة لم تكن محل اهتمام الباحثين قبله وهي مسالة "بنية اللغة". حيث توصل **دوسوسير** إلى أن اللغة تشكل بنية هي "**العلامة**"(***Signe***)، وهذه العلامة تتكون من صورة ذهنية تسمى الأفهوم أو المدلول (***Signifié***)، وصورة سمعية (***Acaustique***)

تسمى الدال (***Signifiant***)، والعلامة اللغوية ليست هي الدال وحده ولا المدلول وحده، وإنما العلامة اللغوية هي البنية المكونة من الدال والمدلول معا، يضاف إلى هذه البنية الربط والتنسيق، فتغدو اللغة عنده نسقاً من العلامات[6]. ويتكون النسق العام للغة عنده من عدة مستويات هي: المستوى الصوتي، المستوى التركيبي، المستوى الصرفي، المستوى الدلالي، المستوى المعجمي... وغني عن البيان أن أبرز ما قرره **دو سوسير** هو الإقرار بمبدأ اعتباطية الرمز اللغوي، أي أن الارتباط بين الدال والمدلول لا يخضع إلى أي موجب أو منطق عقلي يبرر الإحالة من الدال إلى المدلول، ومن ثمّ كانت كل أشكال التواصل الإنساني ما هي إلا أنظمة تتكون من مجموعة من العلاقات التعسفية لا ترتبط الألفاظ بمدلولاتها ارتباطاً طبيعياً أو منطقياً أو وظيفياً. وهذا معناه: «استقلالية اللغة في مقابل الواقع، فوظيفة العلامة اللسانية لا تتمثل في ربط الوحدات اللسانية المنتجة مع الأشياء في العالم المرجعي بل تتجسد في ربط الدال مع المدلول، ومفهوما داخل اللسان يتمثل في تحديد الأدلة ويكون في تقابل مع مفهوم اللسان كنظام»[7].

إذن، اعتبر **دو سوسير** اللغة "**علامة**"، وتتكون هذه العلامة من الدال الصوتي والمدلول المعنوي، فأبعد المرجع الحسي المادي، واحتفظ بما هو مجرد وصوري. ومن ثم، فقد كان يدرس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها. وهذا يعني أنه كان يركز على دراسة اللغة باعتبارها ملكة اجتماعية أساسية وثابتة، ويقصي الكلام باعتباره ظاهرة فردية متغيرة وهامشية. ويعني من جهة أخرى أن **دو سوسير** اهتم فقط بالجانب الصوتي والمعنوي المرتبطين باللغة، ولم يهتم بالكلام والإنجاز القائمين على البعد المرجعي والسياقي[8].ومنذ ذاك استندت البنيوية على دراسات **دو سوسير** اللغوية وانتقلت إلى مجال الخطاب الأدبي أو النقد الأدبي مع الشكلانيين الروس وخاصة **رومان جاكوبسون** (***R. Jakobson*** 1896 – 1982)، وبالتالي فإن نظرية الأدب مع البنيوية قد عرفت تحولا جذريا إذ لم تصبح نظرية في الحياة بل أصبحت نظرية في الإبداع الأدبي من منظور لغوي وفني وجمالي[9]. تتعامل البنيوية – بكل اتجاهاتها – مع الجملة باعتبارها منطلقا للدراسة والتحليل، وتنظر إلى الخطاب الأدبي باعتباره

بناءً كاملا، فالقصيدة الشعرية لا تبدع من أبيات ولا هي نتيجة مجموعة أبيات، لأن البنية الدلالية للقصيدة هي محصلة مجموعة من البنيات المتمثلة في البنية الإيقاعية والبنية التركيبية والتعبيرية والبنية التخيلية وينطبق ذلك على كل أشكال المنتوج الأدبي(10)، ومن هنا أصبحت البنيوية من المفاهيم الأساسية في تحديد طبيعة الأعمال الأدبية.

2-2- ميشال فوكو واركيولوجيا الخطاب: الاركيولوجيا (***Archéologie***) من حيث المصطلح تعني دراسة الحضارات التي شيّدها الإنسان قديما، باستعمال الأدوات والوسائل المختلفة، بهدف الحفر والتنقيب عن الآثار والمعالم التي خلّفتها تلك الحضارات. ومع المفكّر الفرنسي **ميشال فوكو** طرأ على المصطلح تحوّل دلالي ووظيفي لما نقله من ميدان علم الآثار إلى الفلسفة والفكر، ولعل أول تجلٍّ لهذا التوظيف الفوكوي ظهر في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه في عام 1959 عن رسالته الموسومة "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"، والتي وضع فيها أسس المنهج الاركيولوجي الحفري، ثم تبلور المنهج بشكل واضح في كتابه "الكلمات والأشياء" (***Les mots et les choses***) في عام 1966، ثمّ بلغ المصطلح ذروته المنهجية في كتابه "حفريات المعرفة" أو "أركيولوجيا المعرفة" (***Archéologie du savoir***).ومن المعروف أن **فوكو** يعدُّ أحد أقطاب المدرسة البنيوية، ولكنه تميز عنها بمنهجه الاركيولوجي. ورغم أنه كتب العديد من المقالات والموضوعات حول اللغة، إلا أن موضوع اللغة كان هامشيا في فلسفته، في مقابل مركزية الخطاب من حيث إنه يحتل المكانة الأساسية في الإنتاج العلمي والفلسفي لـ**فوكو**(11). وفي كتابه "الكلمات والأشياء" طبق فوكو طريقته في تحليل مختلف الخطابات، خاصة خطاب البيولوجيا والاقتصاد واللغة، كما طرح إشكالية المنهج في كيفية تحليل مختلف الخطابات(12).

ولم يكن هذا المنهج سوى المنهج الحفري أو الاركيولوجي، من حيث هو ملائم لا لقضايا العلم فحسب، بل ولكل النصوص الفلسفية والأدبية والقصص والقواعد التي تفرضها المؤسسات وحتى في القرارات السياسية. يحصر **ميشال فوكو** مجال الخطاب في الممارسات اللفظية التي يتعين شروط ظهورها وانتظامها والكشف عن سماتها

التاريخية، فالملفوظ هو الوحدة الأولية للخطاب و الاركيولوجيا هي تحليلا للأحداث الخطابية(13)، وكلما تعلق الأمر بالكلام عن الإنسان وعن الحقيقة وعن التاريخ وعن الممارسات تصبح أشكال الخطاب بمختلف تمثلاته في المقام الأول.

إن الخطاب هو شكل من أشكال الممارسات تحكمها قواعد ما، وينبغي علينا الانصراف إلى ما وراء الخطاب وقراءة ما يخفيه والكشف عن اللا منطوق فيه، يعد هذا التحليل بمثابة تأويل يشكل مثيلا للنص الأول. وفي كل خطاب كلام مسكوت عنه ينطق بها نص الخطاب، وهذا التحليل للخطاب وفق الاركيولوجيا ليس إلا اختراقا للنص الأول وإعادة قراءته قراءة ثانية للكشف عن إمكانات الخطاب والكشف عن المسكوت عنه الذي لا تقوله الكلمات المعجمية.من هنا، لم يعد الخطاب في نظر **فوكو** إخبارا عن الحقيقة بل هو ما ينتج الحقيقة التي تفرض نفسها على وعي المتلقي، حيث يصبح هو ذاته واقعة وليس مجرد خبر عن الوقائع. ما ينتهي إليه **فوكو** هو أن الخطاب يحتوي بين ثناياه على معان صامتة تمتلئ بنبع لا ينضب عن الأصل الذي يتعذر البحث عنه في أي مصدر آخر، ففي النص يكمن معنى الوجود، لا في الكلمات بكل تأكيد، بل من خلالها كشبكة يُنظر إلى ما ورائها(14). ويهدف تحليل الخطاب عند **فوكو** إلى الكشف عن الأنساق الأساسية في ثقافة ما، من حيث تحدد وتحكم اللغة وفضاءاتها الإدراكية ومجالاتها التبادلية وتقنياتها وقيمها وتراتب ممارساتها، من حيث إنها تفسر النظريات العلمية والفلسفية(15). ويتحقق ذلك بإبراز معايير الخطاب وهي التي يحددها **فوكو** كالتالي(16):

أ- **معايير التكون:** وتتمثل في وجود قواعد تشكل بالنسبة لكل موضوعات الخطاب، ولكل عملياته ومفاهيمه واتجاهاته النظرية.

ب- **معايير التحول:** وتتعلق بتحديد مجمل الشروط التي توفرت في لحظة ما وسمحت بتشكل موضوعات الخطاب، ولكل عملياته ومفاهيمه واتجاهاته النظرية

جـ- **معايير الاقتران:** تتمثل في مجموع العلاقات التي تحدد خطابا معينا، وتحديد موقعه من بين الخطابات الأخرى.

2-3- من البنية إلى التفكيك: ترتبط التفكيكية ***La Déconstruction***

بالفيلسوف الفرنسي **جاك دريدا** (1930 – 2004 ***J. Derrida***)، الذي بدأ نظريته بنقد الفكر البنيوي الذي كان سائدا آنذاك عندما أنكر القدرة على الوصول بالطرق التقليدية إلى حل مشكلة الإحالة، أي قدرة اللفظ على إحالتنا إلى شيء ما خارجه.ومصطلح التفكيك الذي جاء به **دريدا** لم يكن يقصد منه الهدم والتخريب كما يفهم من ذلك، وإنما القصد منه هو إعادة ترتيب عناصر الخطاب على طريقة أهل النحو(17). ومصطلح التفكيكية في مستواه الدلاليّ العميق يدل على تفكيك الخطابات والنظم الفكرية، وإعادة النظر إليها بحسب عناصرها، والاستغراق فيها وصولا إلى الإلمام بالبؤر الأساسية المطمورة فيها، "إن التفكيك – كما يعبر عنه **دريدا** – حركة بنيانية وضد بنيانية في الآن نفسه، فنحن نفكك بناء أو حادثا مصطنعا لنبرز بنيانيه وأضلاعه وهيكله ولكن نفك في آن معا البنية التي لا تفسر شيئا فهي ليست مركزا ولا مبدأ ولا قوة فالتفكيك هو طريقة حصر أو تحليل يذهب أبعد من القرار النقدي"(18). ومن المسلم به أن التفكيكية جاءت لتقويض بعض المفاهيم التي حكمت الغرب وخطاباته، وبحكمها هذا قد شكلت اللاوعي الغربي في مساره، من بين تلك المفاهيم التي عملت التفكيكية على هدمها وتفكيك أنظمتها: مركزية اللغة، مركزية العقل، مركزية الحقيقة ومفهوم الحضور وغيرها التي شكلت وإلى وقت قريب نماذج إرشادية هيمنت على العقل الغربي.

تنطلق التفكيكية أولا من التمييز بين ما هو مكتوب وما هو منطوق، حيث إن للمنطوق أسبقية قبلية على المكتوب، من هنا كان المكتوب هو حمولة المنطوق. إن الكلمات اللغوية التي ننطقها لا تتمتع بأي وجود خارجي أو تأثير ذاتي، وإنما هي مجرد صور سمعية نتمثلها عندما نستحضر المفاهيم. يقودنا هذا إلى القول بانعدام دور الكلمة المنطقة أو الصورة البصرية في إعطاء الدلالة. وفي تحليلها للخطاب أو النص تستهدف التفكيكية تفجير النص بما هو غير متماسك ***Non coherence***، وبما هو منتج لمعانٍ غير قابلة للتجميع ***Non totalisable***، وبالتالي فالقراءة التفكيكية للنص تكشف عن ضبابية العلامة اللغوية بين المعنى المرجعي والمعنى المجازي، مما يؤدي إلى عجز القارئ عن الإمساك بالنص والسيطرة عليه(19). نستطيع أن نقول

عندئذ إن القراءة التفكيكية – بما هي هدم وتقويض – إنما تكشف عن التناقضات التي يحملها النص – الخطاب، تلك التناقضات التي تتخفى خلف الاستقرار الذي يوحي به النص – الخطاب، ذلك أن «القراءة التفكيكية تثبت معنى للنص ثم تنقضه لتقيم آخر على أنقاضه...، إنها تسعى إلى إثبات ما هو هامشي قد يصير مركزيا إذا نظرنا إليه من زاوية مغايرة [...] إن تفكيك النص يقوم على على تأليب قوى الدلالة المتناحرة داخل النص، فيضرب بذلك الاستقرار الذي يخفيه أي معنى»[(20)]. ومعنى ذلك أنّ تفكيك النّص كممارسة نقدية تكشف ما يبدو في النص أو الخطاب من تناسق وعدم تناقض ليس إلا مجرد ألاعيب بلاغية، من هنا فإن التفكيك ينفي وجود معنى للنص متماسك وغير متناقض، أي الكشف عن البنية غير المتجانسة للنص.

2-4- الهيرمينوطيقا بما هي منهج لفهم ونقد الخطاب: "الهيرمينوطيقا" (***Herméneutique***) تعود اشتقاقيا إلى اللفظ اليوناني (***herméneutikè***) التي تتضمن كلمة (***technè***) حيث يحيلنا اللفظ إلى "الفن" أو "الاستعمال التقني لآليات ووسائل لغوية وغيرها قصد الكشف عن حقيقة شيء ما.

تنحدر الكلمة "هرمينوطيقا" في اليونانية من الفعل (***hermeneuein***) والذي ينطوي على أفعال خطابية متعددة: نُطق، إعراب، إفصاح، إثبات، تفسير، ترجمة، إلخ. التعبير عن هذه الأفعال الخطابية هو الانتقال من المنطوق إلى الدلالة التي ينطوي عليها. وبالتالي، فإن الكلمة (***hermeneia***) كانت تحمل هذه الفكرة في الحصول على معنى من خلال كلام منطوق (الخطابة، يدل على ثلاثة معاني متقاربة: التعبير، الشعر، الإيحاء..)، وأصبح الاسم (***Hermeneutikè***) التأويل، الترجمة. فالهرمينوطيقا هي فن التعبير عن أشياء النص (صور، أفكار، خواطر...) بتفسيرها وتبيانها وإيضاح معانيها. إذن كانت الكلمة اليونانية تتضمّن "التقنية (***technè***) حيث تتم الاستعانة بمجموعة من الآليات والوظائف للكشف عن المعنى في النص أو في الظاهرة، وتتبدّى هذه التقنيات في اللغة والمنطق والأساليب البيانية من رمز واستعارة ومجاز. بهذا المعنى، جاز لنا تعريب الهيرمينوطيقا بـ"فن التأويل"[(21)].ومن المعلوم أن التأويلية ارتبطت في بداياتها بالنص الديني، وجاءت

كتعبير عن الحاجة إلى فهم طبيعة النصوص وكيفية تفسيرها واستعمالها، خاصة النصوص الدينية مثل الكتابات المقدسة أو النصوص الفقهية والتي كانت تضطلع بها معارف مختلفة، مثل علم الكلام أو اللاهوت وفقه اللغة (الفيلولوجيا)... وسرعان

ماسعى **بول ريكور** إلى بناء نظرية موضوعية للتأويل، هادفا إلى تدارك الإفراط في النزعة الذاتية التي ألصق **غادامير** (1900 – 2002 ***H. G. Gadamer***) بها الهرمينوطيقا، إذ أن **ريكور** باشتغاله في مجالات الأنتروبولوجيا واللاهوت والفكر القديم قد جعل من التأويل فناً لفك الرموز، يتعامل مع المعنى عبر ما يرمز إليه، هذه الرمزية هي ما يجعل التاريخ واللغة ملتحمان كفعل[22]. إن الرمز في فلسفة **ريكور** يعبر من بين ما يعبر على لا مباشرية العالم والواقع، فنحن إذ ننظر إلى الوجود، فإن عتامة الرمزية تجعلنا لا نفهم مكنوناته الأمر الذي يجعل من «الرمزية الوساطة الكونية للفكر وبيننا وبين الواقع، إنها تعبر قبل كل شيء عن لا مباشرية فهمنا للواقع»[23]. و الحال ذاته مع النص؛ إن عالم النص مليء بالرموز، ومن ثمّ فهو لا يظهر حقيقته من أول وهلة، وإنما يخفيها ويحجبها. من هنا ينبغي أن يتوجه التأويل إلى النص، فالتأويل هو تأويل النصوص: «إن التأويل هو فن تأويل النصوص في سياق مخالف لسياق مؤلفها وجمهورها الأولى، يهدف إلى اكتشاف أبعاد جديدة للواقع»[24]، فالتأويل فعل يقوم على أساس عملية القراءة بوصفها كتابة مغايرة للنص انطلاقاً منه وبه يقول **ريكور**: «لنسم نصاً كل خطاب تثبته الكتابة، تبعاً لهذا التعريف يكون التثبيت بالكتابة مؤسساً للنص نفسه... فأن تقرأ يعني أن تنتج نصاً جديداً»[25]، وهكذا يتحقق التأويل من خلال عملية القراءة بوصفها صقلاً لكل إمكانات النص اللغوية، لذلك فإن التأويلية الريكورية بوصفها تأويلية منهجية، بتطرقها لمواضيع كالشر والأسطورة قد صوبت اهتمامها إلى اللغة كونها تحتل مكانة مركزية.

لقد ربط **ريكور** التأويل بالرمز من حيث هو محاولة لفكه أو لتحليله أو للحفر والتنقيب حوله قصد تدميره، على هذا الأساس باتت مهمة التأويلية الريكورية تأويل الرمز بالدرجة الأولى، «التأويلية المنهجية في هذه المرحلة تتميز بانفتاحها على العالم وعلى الآخر، لأن الرمز يطرح فكرة المرجع، لأنه أثبت أن الخطابات في حد ذاتها

أفعال»[26]، الأمر الذي جعلنا نصرح بأن النظرة الريكورية للرمز هي نظرة مزدوجة لا أحادية، فهو إذ ينظر إليه بإيجاب لأنه يتضمن الحقيقة وراءه، إذ هو في هذه الحالة يحجبها وما إن نفككه يتضح لنا عالم النص الحقيقي، فالنص هنا من حيث هو مجموعة من الرموز يخفي عالمه وراء ظاهره، وبالتالي «يتعامل **ريكور** مع الرمز باعتباره نافذة نطل منها على عالم من المعنى، والرمز في هذه الحالة وسيط شفاف ينم عما وراءه»[27]. أما النظرة السلبية للرمز فهي النظر إليه باعتباره شيء يوهمنا بوجود معنى حقيقي يقدمه، وما ينفك ذلك المعنى إلا ونجده معنى زائف لا يمثل الحقيقة في جوهرها، فمن سلبيات النص أنه يحجب الحقيقة بكل ما له من إمكانات للإخفاء. إن كشف معنى الرموز هو مبتغى التأويل الريكوري. يركز **ريكور** عملية التأويل على المعنى لا على البنية كما هو الحال عند البنيوية، إذ أنه يصوب الهرمينوطيقا حول جدلية الذات والموضوع، أي بين الابستيمولوجيا والانطولوجيا، محاولاً إنهاء هذا الجدل القائم، «فنظرية **ريكور** التأويلية لها رؤية مغايرة، تنطلق من جوهر الإشكال الذي صحب الهرمينوطيقا في مسارات تحولها ويتعلق الأمر بالصراع الدائم بين النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية، أو بين الابستيمولوجيا والانطولوجيا»[28]، لتأخذ عملية الفهم نفسها مسعى جدلياً فلسفياً بدل أن تكون مجرد استخلاص بسيط للمعنى. أسس **ريكور** لنظرة تختلف تماماً عن نظرات فلاسفة التأويل السابقين عليه، وإن كان ينطلق من **غادامير**، فلكي يتجاوزه فيما بعد. وهو في محاولته تخليص الهرمينوطيقا من قبضة الفلسفات الرومانسية التي تسيّدت مع **شلايرماخر** 1748 – 1832 ***F.D. E.Schleiermacher***) و**دلتاي** 1833 – 1911 ***W. Dilthey***، ومن دوغمائية النزعة البنيوية التي أهملت المعنى من وراء تركيزها على البنية، وصولاً بالهرمينوطيقا إلى النص وارتباطها به، مشكلاً بذلك النص عالماً أمام عالم المؤول الذي يبتعد عليه بمسافة، «إذ هي هرمينوطيقا جديدة تتوجه إلى مشكلة الزمان والسرد، وتكون فيها العلاقة التي تربط القارئ بالنص، هي العلاقة التي تربط عالم القارئ بعالم النص»[29]. إنها علاقة مليئة بالارتياب، فأنا حينما أقرأ النص في التصور الريكوري، فإني أطبق الارتياب على نفسي، مثلما يشكل لي ظاهر النص

طبقة ارتيابية، على هذا الأساس «أدت هرمينوطيقا الارتياب بـ**ريكور** إلى أن يحرص على الإبقاء على التوتر بين السيادة المطلقة للقارئ والسيادة المطلقة للنص في عملية استخلاص المعنى»(30). وبالتالي تكون علاقة المفسر بالنص في التأويلية المنهجية الريكورية هي علاقة نفي وإغفال، إذ يحاول من خلالها المفسر النفاذ إلى مستويات المعنى في النص بوسائل التحليل اللغوي وآليات القراءة وأدوات الخطاب، «وينتهي **ريكور** إلى ربط النص بالكاتب، ويؤكد في نفس الوقت استقلاله من حيث المعنى، وتصبح مهمة المفسر هي النفاذ إلى عالم النص وحل مستويات المعنى الكامن فيه، الظاهر والباطن، الحرفي والمجازي، المباشر وغير المباشر»(31)، ولا يتم هذا إلا من خلال المسافة الزمنية ***La DistanceTemporelle*** التي تفصل عالم النص عن عالم المفسر. «فمهمة الهرمينوطيقا حسب **ريكور** هي البحث داخل النص ذاته من جهة، عن الدينامية الداخلية المندسة خلف هيكل الأثر الأدبي والبحث من جهة ثانية، عن قدرة هذا الأثر على أن يلقي بنفسه خارج ذاته ويولد عالماً يكون بحق هو"شيء" النص(32)، إذ أن هَّمَ الهرمينوطيقا الأول عند **ريكور** ليس تتبع أو اقتفاء أثر المعنى فقط، وإنما بسط عالم أمامه، يجعله يتحرر من كهنوت الرمز. قد تقدم **بول ريكور** بالهرمينوطيقا خطوات إضافية إلى الأمام بجعلها تنفتح مرة أخرى على مواضيع وحقول معرفية كثيرة، تجعل من الهرمينوطيقا أكثر من منهج للقراءة، بل بوصفها قراءة تنفتح على العالم.

احتل مركزية الاهتمام من قبل المدارس الفلسفية والنقدية المعاصرة، وقد اختلفت آليات تحليله من مدرسة الى أخرى. لقد نظرت المدرسة البنيوية الى الخطاب كبنية واحدة واهتمت بمختلف العلاقات المتبادلة بين العناصر الأساسية المكونة لبنيته، وبالتالي يقتضي كل تحليل للخطاب دراسة وتحليل مختلف هذه العناصر المكونة له. بينما يتجه التحليل الاركيولوجي الى الحفر في الخطابات وتحليل مضمونها ونقدها، بهدف الكشف عن الأثر التاريخي والفلسفي واللغوي وحتى النفسي الذي أنتج هذا الخطاب. أما التفكيكية فقد بينت أنه من الاستحالة إثبات معني متماسك للنص رغم ما يظهره النص من تماسك ظاهري، وهي بذلك تكشف عن التناقضات الداخلية

للنص. في حين تحاول الهيرمينوطيقا مقاربة المعنى من خلال النفاذ إلى عالم النص وحل مستويات المعنى الكامن فيه.

الهوامش:

(1)- جميل صليبا، المعجم الفلسفي: الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978، ص204.

(2)- انظر إلى: إبن منظور، لسان العرب، دار صادر للنشر، 1994، مادة: خطب

(3)- انظر إلى: التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: الجزء الثاني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ص175.

(4)**Emile Benveniste, Problème de linguistique générale, éditions Galimard, 1966, p16.**

(5)- أحمد زايد، صور من الخطاب الديني المعاصر، دار العين للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص21 - 22.

(6)- أنظر إلى: Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, éditions talant kit, Bejaia, 2002, p 22.

للبحوث المواقف (7)- محمد حولة، تحليل الخطاب من المدرسة البنيوية إلى المنهج التداولي، مجلة والتاريخ، العدد 09، جامعة معسكر، 2014، ص66. المجتمع في والدراسات

(8)- محمد الحناش، البنيوية في اللسانيات، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1980، ص141.

(9)- أنظر إلى: صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الاولى، القاهرة، 2002، ص94.

(10)- المرجع نفسه، ص97.

(11)- الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، الكويت، 2000، ص29.

(12)- المرجع نفسه، ص94.

(13)- السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة عند فوكو، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1994، ص104.

(14)- انظر إلى: ميشال فوكو، تاريخ الجنون، ص206.

(15)- السيد ولد أباه، المرجع نفسه، ص97.

(16)- المرجع نفسه، ص110 - 111.

(17)- أحمد حمدي حسن، جاك دريدا والنظرية التفكيكية، أوراق فلسفية، عدد13، القاهرة، 2005، ص366.

((18))- نقلا عن: فاطيمة زهرة سماعيل، القراءة التفكيكية، مجلة عود الند، العدد79، 2013، نسخة ألكترونية، على الرابط: *http://www.oudnad.net/spip.php?article644*

(19)- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص340، نقلا عن: عبد الكريم شرفي، خطيئة الغذامي من يكّفر عنها: أو المسافة البعيدة بين "تشريحية" الغذامي و"تفكيكية" دريدا، مجلة الخطاب، العدد07، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، 2010، 119.

(20)- عبد الكريم شرفي، المرجع نفسه، ص121.

(21)- أنظر إلى: محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، 2002، ص 29 وما بعدها.

(22)- عمارة ناصر، اللغة والتأويل: مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2007م، ص76.

(23)- المرجع نفسه، ص77.

(24)- نقلا عن: الزواوي بغورة، الفلسفة واللغة: نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2005، ص126.

(25) – المرجع نفسه، ص126- 127.

(26)- المرجع نفسه، ص125.

(27)- نصر حامد أبوزيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ، المركز الثقافي العربي، المغرب – لبنان، ط7، 2005، ص44.

(28)- عبدالغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة: نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، 2008، ص361.

(29)- ميلود بلعالية دومة، فلسفة التاريخ ورهان السرد: فلسفة التأويل" المخاض والتأسيس والتحولات "، مؤلف جماعي، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت، ط1، 2003، ص187.

(30)- عادل مصطفى، فهم الفهم، عادل مصطفى، فهم الفهم "مدخل إلى الهرمينوطيقا"، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 2003، ص342.

(31)- نصر حامد أبوزيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، مرجع سابق، ص46.ص47.

(32)- عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة: نحو مشروع عقل تأويلي، مرجع سابق، ص359.